(٣)

رسالة في

شرح بعض مسائل الجاهلية

تأليف

محمد بن عبد الله السبيل

إمام وخطيب المسجد الحرام

رسالة في

شرح بعض مسائل الجاهلية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد : فهذه رسالة مختصرة في شرح بعض مسائل الجاهلية التي ذكرها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في كتابه القيم « مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية » . نسأل الله تعالى أن ينفع بها ، وأن يتم شرح الباقي من تلك المسائل .

تمهيد :

إن أعمال أهل الجاهلية أعمال متباينة لا تسير على نهج قويم ، ولا ترتبط بنظام ، ولا يحصرها كتاب ، ولا يحيط بها كاتب ، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية بعض أعمالهم ، وحذر منها .

وقد أورد شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- نحو مائة مسألة من أعمال الجاهلية ، التي حذرنا منها الشرع الحنيف ، جمعها -رحمه الله- من القرآن والسنة ، ثم جاء بعده الشيخ العلامة المحقق السيد محمود شكري الألوسي وشرحها شرحًا مختصرًا ، وأشار إلى ما ورد فيها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

ونظرًا لأهمية هذه المسائل فقد رغبت في شرح بعضها تنبيهًا للغافلين، ونصيحة لإخواننا المسلمين ، فنقول وبالله التوفيق :

لقد بعث الله عز وجل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأنزل عليه القرآن العظيم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، أنزله ربنا جل وعلا تبيانًا لكل شيء .

ففيه بيان العقيدة الصحيحة التي رضيها لنا سبحانه ، وأمرنا بها .

وفيه خبر الأحكام التي شرعها لعباده ، وأحسنها ، وأعدلها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

فيه الدعوة لكل خير ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] .

فيه الدعوة لخير أنواع السلوك والأخلاق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

فيه الأمر بالصدق ، والصبر ، والتحمل ، والعفو ، والإعراض عن الجاهلين ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩] ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠] .

فيه الأمر ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، والنهي عن قتل النفس بغير الحق، والنهي عن التكبر ، والتجبر ، وعن الظنون السيئة ، وأمر بحفظ السمع والبصر

والفؤاد عن كل ما لا يجوز ، وعن القول بلا علم ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] .

وبالجملة فإنه دعا إلى كل خير ، وحذر من كل شر ، وبمثل هذه الأمور جاءت السنة النبوية ، فعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » رواه أبو داود .

فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما الضياء والنور ، وسبيل النجاة ، كما جاء عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقلنا : يا رسول الله إن هذه لموعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟ قال : قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرًا ، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ ، وعليكم بالطاعة ، وإن عبدًا حبشيًا ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد » رواه ابن ماجه .

مسألة : التعبد بإشراك الصالحين في عبادة الله تعالى :

كان أهل الجاهلية يعبدون الله تعالى ، ولكن لا يفردونه بالعبادة ، ولا يوحدونه ، بل يعبدون معه الأصنام ، والأوثان ، والأشجار، والأحجار ، والأولياء ، والصالحين ، ويزعمون أن هذا من الدين ، وأنه يقربهم إلى الله زلفى ، وهذه المسألة من أعظم ما بُعث الرسول ﷺ بإزالتها ، بل هي طريقة أنبياء الله ورسله من أولهم إلى آخرهم ، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبودية سبحانه ، والحذر من الشرك ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ، وهذه هي ملة إبراهيم عليه السلام التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣] ، وملة إبراهيم هي قوله عز وجل ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦] ، وهذا هو معنى كلمة الإخلاص، كلمة التوحيد ، لا إله إلا الله ، وهي العروة الوثقى التي من استمسك بها فقد فاز ونجا ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٥٦] .

فهذه المسألة التي هي عبادة الله تعالى والكفر بما يعبد من دون الله كائنا من كان ، من أعظم ما خالف بها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية ، فإن أهل الجاهلية لا يرون بذلك بأسًا ، بل يرونه من الدين ، ومما يقربهم إلى ربهم ؛ ولذلك لما قال لهم رسول الله ﷺ : قولوا لا إله إلا الله ، قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ [ص:٥-٧] .

وما أشبه الليلة بالبارحة فإن بعض أهل هذا الزمان يعبدون الأولياء والصالحين ، وينذرون لهم النذور، ويذبحون لهم القرابين، ويهدون لهم

الهدايا ، ويزعمون أنهم بذلك على هدى وعلى طريق مستقيم ، وإذا أنذرهم منذر أو نهاهم مذكر ؛ قالوا : هؤلاء لهم جاه ومنزلة عند الله ، ونحن لا نعبدهم ، ولكن إذا دعوناهم ، وتقربنا إليهم بالنذور ، صاروا لنا وسائط وشفعاء عند الله ؛ لما لهم من الجاه والمنزلة عندهم ، ونسوا أن هذا من أعمال أهل الجاهلية التي حذرنا الإسلام منها ، فإن أهل الجاهلية كانوا يقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، كما قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه عنهم في أوائل سورة الزمر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:٢] ، ويقول سبحانه وتعالى في سورة يونس: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] .

فهذه أعظم مسألة خالف رسول الله ﷺ فيها أهل الجاهلية ، وأتى بإخلاص العبادة لله وحده ، وأخبر أنه دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه، ومن أجله أنزلت الكتب ، وأرسلت الرسل ، وشرع الجهاد في سبيل الله ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٣].

مسألة : التفرق :

ومن المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية : التفرق والنفرة من بعضهم لبعض ، فلا يجتمعون على أمر من الأمور ، بل كلٌّ يرى أن اتفاقه على رأي مع غيره مما فيه مصلحة ؛ يراه ذلة وهوانًا ونقصًا فيه ، وعيبًا يعاب به بين أمثاله ؛ ولذلك جرّت هذه الأمور عليهم شرورًا كثيرة ،

وحصل بسبب ذلك إراقة الدماء، واضطراب الأمن والاستقرار ، وتسلط بعضهم على بعض لأتفه سبب ؛ ولذلك أمرهم الرسول ﷺ بالاتفاق والاعتصام بدين الإسلام ، وعدم التفرق ، كما أمره الله بذلك ، يقول سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢–١٠٣] ، فالله سبحانه يذكر المسلمين بنعمة الإسلام التي جمعت كلمتهم ، وجعلتهم أحبابًا متآلفين محبة قلبية ، ليست مجرد قولة باللسان ، بل التآلف حصل للقلوب والأرواح ، وهذه هي المحبة الصادقة التي هي ثمرة الأخوة الصحيحة ، الأخوة في الله ، والمحبة فيه سبحانه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ وكنتم على خطر أن تهووا في الهاوية ، فأنقذكم سبحانه بالإيمان ، ومتابعة نبيه ﷺ من هذه الهلكة. فتذكروا هذه النعم ، فإنه لا يعدلها أي نعمة.

قال الألوسي – رحمه الله – : « يقال : أراد سبحانه بما ذكر ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مائة وعشرين سنة ، إلى أن ألف سبحانه بينهم بالإسلام ، فزالت الأحقاد . قاله ابن إسحاق . وكان يوم بعاث آخر الحروب التي جرت بينهم ، وقد فصل ذلك في (الكامل) .

ومن الناس من يقول : أراد ما كان بين مشركي العرب من التنازع الطويل والقتال العريض ، ومنه حرب البسوس ، كما نقل عن الحسن رضي

الله عنه . وقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن :١٦] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الناصة عن النهي عن الاستبداد والتفرق ، وعدم الانقياد والطاعة، مما كان عليه أهل الجاهلية » اهـ .

وكل هذه الأمور أزالها الله بعد الإسلام ، فذكرهم هذه النعمة ، وأمرهم سبحانه بالتقوى ولزوم الجماعة ، وحذرهم من النزاع والتفرق الموجبان لسفك الدماء، ونهى عن الاستبداد والتفرق وعدم الانقياد والطاعة ، كما كانوا عليه في جاهليتهم .

مسألة : مخالفة ولي الأمر :

من المسائل أيضًا التي أمر رسول الله ﷺ بمخالفة أهل الجاهلية فيها ؛ السمع والطاعة لأولي الأمر ، فإن أهل الجاهلية كانوا يرون أن عدم السمع والطاعة من الفضائل ، وربما اتخذه بعضهم دينًا ؛ فلهذا حذر ﷺ من هذه الخصلة ، وأخبر أنها من أعمال الجاهلية ؛ لما يترتب عليها من الأمور العظام من التفرق ، وسفك الدماء ، والعداوة ، والبغضاء ، وكل هذه الأمور جاء الإسلام بإزالتها من المجتمعات ، وأمر بجمع الكلمة والوئام والتحابب ، وأمر ﷺ بالصبر على جور الولاة ، والسمع والطاعة لهم ، وغلظ في ذلك ، وأعاد وقال ﷺ : « اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك » رواه مسلم ، وقال : « اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » رواه البخاري ، وجاء عنه ﷺ قوله : « إن الله يرضى لكم ثلاثًا : أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » رواه مسلم ، وفي البخاري عن ابن

عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية » ، وروي عن جنادة بن أبي أمية قال : « دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، قلنا : أصلحك الله ، حدّث بحديث ينفعك الله به سمعته من النبي ﷺ ، قال : دعانا النبي ﷺ فبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم من الله فيه برهان » رواه مسلم . وقد كثرت الأحاديث الثابتة الصحيحة في هذا المعنى .

وعند تتبع التاريخ ترى العجائب في هذا الباب ، وأنه ما حصل سفك الدماء ، وتفرق المسلمين ، وطمع الكفار بهم ، ولم يقع خلل في الدين والدنيا إلا من الإخلال بالعمل بهذه الأحاديث وهذه الوصايا التي وصانا بها رسول الهدى ﷺ من جمع الكلمة والاتفاق وعدم التفرق والاختلاف ، ولا شك أن هذا هو الذي يقتضيه الشرع والعقل ، وقد دل الاستقراء على ما تحته من المصالح العظيمة ، وما ينتج من مخالفته من المفاسد الكثيرة . والله سبحانه وتعالى يأمر عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولى الأمر، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء:٥٩] . وكان ﷺ في مبايعاته لأصحابه يأمرهم بالسمع والطاعة ، وهل يمكن أن ينتظم أمر لأحد بدون السمع والطاعة !! ولذلك جاء في الحديث « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » رواه مسلم ، مع أن القتل من أعظم

الذنوب وأشدها ، وفي الحديث : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مؤمن بغير حق » رواه الترمذي والنسائي ، ولكن لما كان يترتب على تركه ومشاقته ما يترتب من سفك الدماء ، وضعف المسلمين؛ أمر الرسول ﷺ بقتله ، وقتل رجل واحد أخف ضررًا ، وأقل شرًّا من قتل الألوف من المسلمين ، والقاعدة الشرعية أن يرتكب أدنى الضررين لدفع أعلاهما .

مسألة : التقليد :

ومن المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية ؛ التقليد ، فالرسول ﷺ نهى عن التقليد ، ومتابعة الغير بدون دليل يستند عليه عن الله ورسوله ﷺ ، وهذا في الحقيقة هو دين الجاهلية، وهو أصلهم العظيم الذي يدورون عليه ، وليس هذا خاصًا بقريش ، ولا بأهل الجاهلية في زمنه عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو دين جميع الأمم التي بعث فيها الرسل ، فهذه عندهم قاعدة عظيمة يردون بها الحق ، ويدفعون بها دين أنبياء الله ورسله ، كما قال سبحانه وتعالى في وصف حالهم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣] ، وقال عز وجل في الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٠] إلى غير ذلك مما يدل على أن أهل الجاهلية كانوا في ربقة التقليد ، التقليد الأعمى الذي لا يستند على أي دليل، فهم لا يعملون لهم فكرًا ، ولا يشغلون لهم عقلاً بالتذكر والتفكر في الأمور ، فلهذا تاهوا في أودية الجهالة ، وضلوا في صحاري الغواية ، فهم في

ريبهم يترددون ، وفي حيرتهم يعمهون ، ليس لهم حكم وتدبير ، ولا عقل منير ، والقرآن يناديهم ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣].

والله عز وجل يدلهم على الطريقة المثلى والمسلك القويم والصراط المستقيم ، ويقول لنبيه محمد ﷺ : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾ [سبأ:٤٦] ، ولكن إذا غلبت الشقاوة فلا يؤثر فيهم لوم ولا عتاب ولا بيان ، وكم صد التقليد أشخاصًا عن الهدى ، وجلب لهم الشقا ، وفوت عليهم السعادة . فانظر إلى مضرة التقليد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مسألة : الاقتداء بالعالم الفاسق أو العابد الجاهل :

من مسائل أهل الجاهلية أنهم يقتدون بأناس ليسوا على طريقة مستقيمة ، إما لجهلهم بدينهم ، أو عدم استقامتهم على أمر الله ، فكانوا في الجاهلية سواء جاهلية المشركين من العرب ، أو غيرهم من أهل الكتاب يفعلون ذلك ، والقرآن الكريم نزل بالتحذير من الاقتداء بهؤلاء ، وأمر بالبعد عنهم ، فكل من لم يكن على جانب من العلم والزهد والعبادة وتقديم ما جاء عن الله وعن أنبيائه على كل شيء ، فهذا لا يقتدى به ، ولا يتابع على ما هو عليه ، فإن بعض العلماء يدعون الناس إلى الله بألسنتهم ، ويخالفون ذلك بأفعالهم، وإذا عرض لهم عارض من فضول الدنيا قدموه ، وأقاموا لأنفسهم الأعذار والمسوغات، وإن لم تكن على جادة الصواب، ولا

على سنن الهدى؛ ولذلك حذر القرآن الكريم ممن هذه أوصافهم وهذه طريقتهم ، فقال عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤] فهذا فيه التحذير من متابعة هؤلاء العلماء الفساق ، الذين علموا العلم ، ولكن لم يعملوا بعلمهم ، ولم يكتفوا بعدم العمل ، بل أضلوا الناس ، وصدوهم عن سبيل الهدى .

وكذلك الجهال الذين يتلبسون بالعبادة ، ويظهرون للناس النسك ، وهم بخلاف ذلك ، بل هم من الضلال الذين يضلون الناس بعبادتهم التي لم تبنى على وحي من الله ورسوله ، بل هم يتخبطون في عبادتهم ، ويتابعهم كثير من الناس ، ينخدعون بهم ، وبزيهم ، وإظهارهم النسك ، فهؤلاء يضلون الناس ؛ ولهذا قال بعض السلف رحمهم الله : من فسد من علمائنا ففيه شبه من الأحبار ، ومن فسد من عُبّادنا ففيه شبه من الرهبان ؛ ولأن من سلك طريقهم ، وسار على نهجهم ، فله نصيب من صفاتهم ، بحسب ما اتصف به ، فكل ما جاء في القرآن من ذم اليهود والنصارى وغيرهم ممن خالف أمر الله إذا اتصف به أحد ممن ينتمي للإسلام ؛ فله نصيب من ذلك؛ ولأن الله عز وجل ذكر ما ذكر من الصفات والأفعال التي عابها على المشركين من العرب وغيرهم من أهل الكتاب ، تحذيرًا لنا أن نسلكها أو نفعل كفعلهم ، فإذا فعلنا مثلهم أصابنا ما أصابهم ؛ ولذلك لما قال الله عز وجل في قصة شعيب عليه السلام عند ختمها بالآيات في سورة هود ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ

قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ [هود:٨٩] ، فكل من خرج عن التعاليم الإلهية ، إما عن عمد ومعاندة ، أو عن جهل وإعراض عن الحق ، فله قدر مشترك من العذاب على حسب فعله ، كما فعل بالأمم السابقة .

والحاصل أن الرسول الكريم ﷺ خالف أهل الجاهلية في متابعتهم للفساق ممن يدّعون العلم وهداية الناس ، وهم بعكس ذلك ، يصدون عن سبيل الله ، كما قال سبحانه ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:٧٧] .

مسألة : الاحتجاج بما كان عليه الآباء بلا دليل :

إن من أعمال أهل الجاهلية التي خالفهم فيها رسول الله ﷺ ما كانوا عليه من عدم قبول الحق ، والاحتجاج بما كان عليه أسلافهم والقرون المتقدمة لهم ، بدون دليل صحيح ، وبدون رؤية وتفكير وعقل سليم ، فمجرد عمل القرون السابقة هو دليلهم على السير على مناهجهم ، ولو كان في الكفر والشرك والظلم ومخالفة الأنبياء والمرسلين ؛ ولذلك جاء القرآن الكريم بإبطال هذه الأمور في سورة طه ، عندما ذكر سبحانه قصة إرساله موسى وهارون إلى فرعون ، فقال رادًّا عليهم ، ومحتجًّا بما عليه أسلافه من أهل القرون الأولى ، قال سبحانه في محاورتهما -أي محاورة موسى وهارون لفرعون - قال : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه :٤٩-٥٤] وقال في سورة ص : ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ [ص:٦-٧] ، شجع بعضهم بعضا على الاستمرار بما هم عليه من الباطل ، وعدم الالتفات إلى من خالفهم ، وعدم قبول الحق ممن جاءهم به ، وأمر بعضهم بعضًا بالصبر على ذلك ، والتمسك بعبادة آلهتهم التي يعبدونها من دون الله ، وأن هذا مقصود به صدكم عن آلهتكم والتخلي منهم ، ثم استدلوا على ذلك ، وأكدوا هذا الاستمرار بأن هذه هي الطريقة المستقيمة والمحجة الواضحة بزعمهم هي الصواب ، وهي الحق ، وأن ما عداها بعيد عن الصدق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ فسموا الحق اختلاقًا ، أي كذبًا ، وما هم عليه من الباطل هو الحق الذي يجب التمسك به ، والتمشي بموجبه ، والصبر على إنفاذه والاستمرار عليه . وهذه طريقة أهل الجاهلية جميعًا من زمن نوح عليه السلام إلى زمن المشركين الذين بُعث فيهم خاتم النبيين محمدﷺ، فتقدمت الآيات التي تشير إلى فعل كفار قريش ، وكذلك في قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون ، وأما في قصة نوح عليه السلام ففي قوله سبحانه في سورة المؤمنون : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون:٢٣-٢٥] ، فهذه حجة الأولين والآخرين منهم ، ﴿ مَّا

سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ، فجعلوا مدار احتجاجهم على عدم قبول ما جاءت به الرسل ، أنه لم يكن عليه آباؤهم وأسلافهم ، ولا عرفوه منهم ، فكيف يتبعون رجلاً يخالف آبائهم وأسلافهم الأولين ؛ ولهذا لما عاتب كعب أخاه بجيرًا على إسلامه واتباع محمد ﷺ قال في تأنيبه لبجير :

على خلق لم تلف أمًّا ولا أبًا عليه ولا تلقى عليه أخاك

فلما سمع رسول الله هذا البيت من جملة الأبيات قال ﷺ : أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه .

وفي قصة أبي طالب أوضح دلالة وأعظم دليل على خطر هذه الكلمة، وذلك أن الرسول ﷺ حرص أشد الحرص على إسلام عمه أبي طالب ، ولما حضرته الوفاة جلس عنده ، ودعاه للإسلام ، وعرض عليه الإقرار بالتوحيد ، والاعتراف بكلمة الإخلاص ، لا إله إلا الله ، التي من كانت هذه الكلمة آخر كلامه دخل الجنة ، فقال : يا عم قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله ، وكان عنده بعض كبراء قريش ، فلما أحسوا منه الإصغاء إلى قول الرسول ﷺ ، والميل إليه ، وأراد أن يقول : لا إله إلا الله ، قالوا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ! فلما قالوا له ذلك أبى أن يقول لا إله إلاّ الله ، ومات وهو على ملة عبد المطلب ، مات على قول أهل الجاهلية ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢] .

اللهم اهدنا صراطك المستقيم ، وجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين.

مسألة : الاحتجاج على الحق بقلة أهله :

إن من أعمال الجاهلية التي خالفها رسول الله ﷺ أنهم يحتجون على صحة باطلهم ، وردهم الحق بقلة أهله ، ويستدلون على باطلهم بكثرة أهله، والاحتجاج بالسواد الأعظم ، وإن كان على غير هدى ، وهذه حجة زائفة لا تروي غليلا ، ولا تشفي عليلا ، كيف وقد أبطلها القرآن الكريم ، وبين الحال بعكس ما ذهبوا إليه ، فإن أهل الباطل غالبًا هم الأكثر عددًا ، وهم السواد الأعظم ، فإن أغلبية الخلق ضعفت بصائرهم ، وغلب عليهم حب الشهوات ، وثقلت عليهم التكاليف الشرعية ، وضعفت عزائمهم عن مقاومة نفوسهم وميلها إلى الباطل ، وسيطرت عليهم أهواؤهم ، فقادتهم إلى الطرق المعوجة المائلة عن سبيل الإيمان ، وعن الأخلاق العالية الشريفة :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى

إلى كل ما فيــه عليك مقـــــال

والله عز وجل قد أبان لنا في محكم كتابه أن الأكثرين من الناس قد انحرفوا عن طريق الصواب ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [الأنعام:١١٦-١١٧] .

فالكثرة إذا كانت على خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه لمن كان له بصيرة وقلب يعقل ، فالحق أحق بالاتباع ، قل ناصروه أو كثروا، والله مؤيده وناصره ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١] ومن ثم قيل : للباطل جولة ثم يضمحل ، فالباطل مآله للزوال وإن كثر أعوانه وأنصاره ، والحق مآله للثبات وإن قل أنصاره وأعوانه ؛ لأن الله مع الحق ، ومن كان الله معه فهو المنصور الغالب ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات :١٧٣] .

فالكثرة على خلاف الحق لا تستوجب العدول عن اتباعه ؛ لأن الله سبحانه أخبر أن البغي بين الخلطاء والشركاء كثير، وأنه لا يسلم من ذلك إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم قليلون بالنسبة إلى غيرهم ، كما قال سبحانه : ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤] ، فأخبر الله تعالى عن أهل الحق أنهم قليلون ، غير أن القلة لا تضرهم ، فكل من كان على جانب كبير من العلم والعمل ، أو من الشجاعة والكرم ، أو من مكارم الأخلاق والشيم ، أو الصبر والحلم ، فإنهم بالنسبة إلى من ليس كذلك قليل ، فالأكثر في الناس النقص ، وعدم الاستقامة ، وعدم الوفاء .

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

فالاعتماد على السواد الأكثر والاحتجاج بما عليه الكثرة الكاثرة من غير برهان ولا دليل؛ نقص في التصور ، وخلاف المعقول والمنقول والواقع، والتوفيق بيد الله سبحانه وتعالى .

مسألة : الاستدلال على بطلان الشيء بكونه غريبًا :

إن من أعمال الجاهلية التي أنكرها النبي ﷺ وخالفهم فيها استدلالهم بردّهم الشيء ، ودعواهم ببطلانه ، بكونه غريبًا ، أي جديدًا عليهم لم يعرفوه من قبل وقد بين النبي ﷺ أن الإسلام بدأ غريبًا ، فقال ﷺ : « بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا ، فطوبى للغرباء» رواه مسلم . فهو غريب بالنسبة لعمل الجاهلية ، ثم أثنى النبي ﷺ على أهله الغرباء المتمسكين به ، وفضلهم على غيرهم بقوله ﷺ : « فطوبى للغرباء » ، وهؤلاء الغرباء أخبر عنهم ﷺ « أنهم يصلحون إذا فسد الناس » أو « أنهم يصلحون ما أفسد الناس » رواه أحمد والترمذي وحسنه . فالغرابة في حد ذاتها ليست عيبًا ، بل قد تكون شرفًا ، كما في هذا الحديث . وقد روي من عدة طرق ، فقد روي عن عبد الرحمن بن سنة رضي الله عنهما بلفظ : « إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، وهو يأرز إلى ما بين المسجدين ، كما تأرز الحية إلى جحرها » رواه أحمد . وروي مرسلاً عن شريح بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا ، ألا لا غربة على المؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه ، إلا بكت عليه السماء والأرض ، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [الدخان:٢٩] ، ثم قال : « إنهما لا يبكيان على كافر».

هذا وقد تكون الغرابة لقلة المشاكلة والمجانسة ، سواء في الخير أو في غيره ، فإن كان في الخير فهو في غاية المدح والثناء ؛ لكونه انفرد بهذه الخصلة

الحميدة ، أو بهذا الوصف الفضيل ، ويروي أن الإمام أحمد رحمه الله أنشد هذا البيت :

إذا مضى القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريـــب

ويشبه هذا قول الطغرائي :

هذا جزاء امرئ أقرانه درجـوا من قبله فتمنى فســحة الأجـل

فكل من ذهب نظراؤه ، ودرج جيله الذي عاش بينهم ، يكون غريباً عند غيرهم ، لكن هذه الغربة لا تعطي وصف ذم ، بل قد يكون خيرًا ممن هو غريب بينهم .

فالحاصل أن وصف الغربة ليس بنقص ولا عيب ، بل اعرف الحق لتعرف أهله . وقد جرت في الأمثال « في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا » وذلك يعني ندرة هذا الشيء ، وقد قال الله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾[هود:١١٦]، فقوله : ﴿ فَلَوْلَا ﴾ تفيد معنى التوجع ، أي فهلا﴿ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ ، أي الأقوام المتقدمة المقتربة في زمان واحد ﴿مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ ، أي ذوو خصلة باقية من الرأي والعقل ، أو ذوو فضل من بقيتهم من خيارهم،﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الواقع فيما بينهم ، وفسر الفساد بالكفر ، وما اقترن به من المعاصي ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا ﴾ ، أي ولكن قليلًا ممن أنجيناهم ؛ لكونهم كانوا ينهون عن الفساد ، وهو قريب من قوله

عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٥] ، فمدلول هذه الآيات بيان قلة القائمين بالحق، وغرابتهم بين قومهم ، فصاروا مع غربتهم هم أهل الحق ؛ لأنهم كانوا متمسكين به ، والرسول ﷺ يقول : « فطوبى للغرباء الذي يصلحون عند فساد الناس » .

مسألة : انخداع أهل القوة والحيلة بقوتهم وحيلتهم :

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن من كان له قوة في جسمه ، وإدراك قوي في عقله ، وسعة تفكير في فهمه ، وجاه عريض ، ومال كثير ، أن ذلك يمنعهم من الضلال ، وكيف يضلون عن طريق الحق وهم على هذه الأحوال !! فرد الله عز وجل عليهم هذا الزعم ، وبين لهم أن هذا من الضلال البعيد ، كما حذر من ذلك رسول الله ﷺ ، وقد بين الله تعالى ذلك في عدة آيات من كتابه ، كما قال سبحانه : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧] ، وقال سبحانه في أهل القوة من قوم عاد، وما أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد ، الذي به عادة يتمكن صاحبه من التفرقة بين ما ينفعه وما يضره ، قال سبحانه وتعالى عنهم : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ

سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٦] ، فهو سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ ﴾ قوينا عادا وأقدرناهم في شيء ما مكناكم فيه من السعة والبسطة في الرزق وطول الأعمار وسائر أنواع التصرفات ، فهم أقوى منكم وأشد بطشًا ، ومع ذلك فقد جعلنا لهم أسماعا وأبصارًا وأفئدة ؛ ليستعملوها فيما خلقت له، ويعرفوا لكل منها ما أنيط به معرفته من أصناف النعم ، ويستدلوا بها على نعم الله عز وجل ، الذي مَنَّ بها عليهم ، فيدعو بشكره جل ثناؤه ، فما أغنى عنهم سمعهم ، حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواعظ الأنبياء ونصائحهم ، ولا أبصارهم ، حيث لم يجتلوا بها الآيات الكونية المرسومة في صحائف هذا العالم الفسيح، ولا أفئدتهم ، حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى ، والاعتراف له بالتوحيد ، والإخلاص في العبادة ﴿من شيء﴾ أي ما أغنت عنهم شيئاً من الأشياء ؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم وعمهم ما كانوا يستهزؤون به من العذاب الذي كانوا قبل معاينته يستعجلونه بطريق الاستهزاء ، ويقولون : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف :٧٠] ، فأتاهم العذاب ، فأهلكهم عن آخرهم ، فهل نفعهم قوتهم وحيلهم وغلظ أجسامهم ؟ فالتوفيق بيد الله تعالى ، فحصول الإيمان بالله ورسله والإذعان للحق وسلوك سبيله إنما هو فضل من الله تعالى ، لا لكثرة مال ، ولا لحسن حال ، ومن يرد الحق ويستدل بكونه أحسن الناس حالاً ، فقد سلك سبيل الجاهلية ، وحاد عن المحجة المرضيـة .

قال الألوسي – رحمه الله – : « ومثله قوله سبحانه : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٨٩] كان اليهود يعلمون من كتبهم رسالة محمد ﷺ ، وأن الله سيرسل نبيًا كريمًا من العرب ، وكانوا قبل بعثته يستفتحون على المشركين ببعثته ، ويقولون : يا ربنا أرسل النبي الموعود إرساله حتى ننتصر على الأعداء ، فلما جاءهم ما عرفوا ، وهو محمد ﷺ كفروا به ، حسدًا منهم أن تكون النبوة في العرب ، وهم بزعمهم أحسن أثاثا ورئيا» اهـ .

مسألة : انخداع أهل الثروة بثروتهم :

أن من أعمال أهل الجاهلية أنهم يستدلون بعطاء الدنيا على رضى الله على عبده ومحبته له ، ولم يعلموا أن الله يعطي الدنيا من يحب ، ومن لا يحب، وسعة الرزق وكثرة الأولاد والوجاهة في الدنيا لا تدل على محبة الله ، فقد يعطي سبحانه هذه الأشياء لعباده المؤمنين ، وقد يعطيها للكفار ، وهذا شيء معلوم ومشاهد ، ولكن أهل الجاهلية لنقص علومهم وفساد تصوراتهم يرون أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، ورضاه عنهم ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ:٣٤-٣٥] فأكذبهم سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٦-٣٧] . وقال سبحانه وتعالى حكاية عن قارون حينما أعطاه الله ما أعطاه من المال الكثير والكنوز العظيمة من الذهب والفضة ، قال لقومه : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي لمعرفتي ، وحذقي ، وحسن تصرفاتي ، فأضاف النعم إلى حوله وقوته وامتيازه على الناس ، وهذا التصور الفاسد جعله يتكبر ويتجبر على عباد الله .

يقول سبحانه في قصته : ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ
نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن
ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ
يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٧٦-٨٢] .

فبهذا تبين لك أن محبة الله ورضاه إنما تكون بطاعته والانقياد لأمره سبحانه ، وأمر رسوله ﷺ ، وأما كثرة المال والأولاد ونحو ذلك من نعيم

الدنيا فليست دليلاً على نجاة صاحبها ؛ لأن المنعَم عليه حقيقة هو الذي هدي إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء . ولو كانت الدنيا وما فيها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴾ [الزخرف:٣٣] فلو قيل : إن كثرة الرزق يخشى منها الاستدراج بصاحبها ، سيما إذا لم يقم بشكرها ، لكان أقرب من القول بأنها دليل الرضا ، كما يزعم أهل الجاهلية ، وقد ورد في الأثر : « من زيد في عقله نقص من رزقه» ، فكم نرى أناسًا كثرت أموالهم وأولادهم وهم في غاية من الجهل ، وآخرين على جانب كبير من العلم والأدب رزقهم قوتًا ، أو أقل منه ؛ ولهذا يروى عن بعض أهل الأدب الأبيات المشهورة :

كم من قوي قوي في تقلبــــــــه

مهذب الرأي عنه الرزق منحرف

وكم غبي غبي في تصرفــــــــه

كأنه من خليج البحـــر يغتـــرف

فسبحانه الحكيم العليم ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، لا إله إلا هو العليم الحكيم .

مسألة : الاستخفاف بالحق لضعف أهله :

كان أهل الجاهلية يستخفون بالحق ، ويأنفون من قبوله ، من أجل أن الذي عليه غالبًا هم ضعفاء الناس وفقرائهم ، ومع ذلك يستدلون على

بطلان الحق بهذا السبب ، الذي هو اتباع ضعفاء الناس له ، وبزعمهم أنه لو كان حقًا لأخذ به الأقوياء والأغنياء والكبراء من الناس .

كما قال كفار قريش لنبينا محمد ﷺ ، فقد روى الإمام أحمد وابن جرير رحمهما الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « مر الملا من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم ، فلعلك إن طردتهم نتبعك ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] » ، فانظر إلى مشركي العرب واحتقارهم للمؤمنين ، وطلبهم من الرسول ﷺ طردهم .

وانظر قصة هرقل لما كان له من العقل كيف قال لأبي سفيان لما سأله عن الرسول ﷺ حتى قال : « وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل » فأتباع الرسل هم الضعفاء ، والهداية بيد الله سبحانه وتعالى . اللهم اهدنا صراطك المستقيم ، وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

مسألة : وصم أنصار الحق بما ليس فيهم :

إن أهل الجاهلية على ما هم فيه من التكبر وعدم قبول الحق يلصقون عيوبًا كثيرة في أهل الحق تنفيرًا عنهم ، ولو أنهم في باطن نفوسهم يعلمون كذب أنفسهم ، ولكن فعلوا ذلك لئلا يحتج عليهم بهؤلاء المؤمنون ، وخوفًا من أن يتبعهم الناس ، فيكثر أتباعهم ، ويبقوا وحدهم في انعزال ،

فهم يقولون : هؤلاء ، يقصدون أتباع الأنبياء ، ليس لهم قصد في الله وفي الآخرة ، ولكن يريدون الدنيا ، وليتحصلوا على غرضهم منها ، كما قال قوم نوح عليه السلام له ؛ ولذلك قال نوح عليه السلام عن الذين أسلموا من قومه : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء:١١٣] ، فإن كان قصدهم الدنيا ، أو لهم غرض آخر فلا يلزمني التنقيب عنهم ، والبحث والفحص عما في قلوبهم ، إنما أقبل تصديقهم ، وأكِلُ سرائرهم إلى الله عالم الغيب والشهادة .

مسألة : التكبر عن نصرة الحق لأن أنصاره ضعفاء :

كان من خصال أهل الجاهلية أنهم يتركون قبول الحق ، ويُعرضون عنه تكبرًا ؛ لكون الفقراء وضعفة الناس قبلوه ، ولذلك قالوا لنوح عليه السلام : اطرد عنك هؤلاء الأرذلون ، فقال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١١٤] ، وقالوا لمحمد ﷺ : اطرد هؤلاء الأعبد ، فقال الله له : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام:٥٢] ، وكم حصل مثل ذلك، وما يشاكله من بعض المتكبرين ، الذين يتركون طلب العلم كراهية لمجالسة الفقراء والضعفاء من طلاب العلم ، وحرموا أنفسهم الخير الكثير، وفاتهم العلم بهذا السبب ، فهم إذا جاؤوا إلى حلقات الذكر ومجالس العلماء ، ورأوا الفقراء وغيرهم جنبًا إلى جنب ، لا فرق في حال الدرس والجلوس أمام العلماء بين الغني والفقير ؛ استنكف كثير منهم أن يجالس هؤلاء ، وترك طلب العلم لهذا الغرض السيء في نفسه ، وهو الترفع والتكبر عن هؤلاء ، ولكن كيف تكون العاقبة بعد ذلك ، تكون كما

هو مشاهد ، يبقى في جهله وضلاله ، وإذا احتاج إلى معرفة مسألة من مسائل العلم ، أو وقع له مشكلة بينه وبين أحد من الناس ، أو بينه وبين أهله ، ذهب يلتمس من أولئك الذين كان يحتقرهم ، ويأبى أن يجالسهم معرفة حكم ما وقع فيه ، وجلس بين أيديهم مجلس المتعلم المسترشد المعترف بجهله، وربما تردد على باب أحدهم الأيام ؛ لينال مقصده، ويعرف حكم مسألته .

وكان العلماء رحمهم الله لا يفرقون بين أحد من الناس في العلم ، فيجعلون مجلسهم مجلسًا واحدًا للعموم، سواء الفقراء والأغنياء والملوك ، كما عرف عن الإمام مالك والبخاري وغيرهم من أئمة المسلمين .

مسألة : الغلو في الصالحين :

إن من أعمال أهل الجاهلية الغلو في الصالحين ، سواء جاهلية أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم العلماء، ويدعون معرفة كل شيء، أو كانوا من جاهلية العرب الذين كانوا يقلدون أهل الكتاب ، ويقتبسون منهم بعض عباداتهم .

وهذا الغلو في الصالحين قد يكون سببه طلب التقرب إلى الله، والله سبحانه وتعالى أخبر عن غلو أهل الكتاب في محكم كتابه فقال عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟

إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١] ، فقولهم : عزير ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - من غلوهم في العزير ، والله سبحانه وتعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

وكذلك مقالة النصارى مثل ذلك ﴿ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨] قاتلهم الله ، ثم أخبر عنهم سبحانه وتعالى بأنهم أيضاً اتخذوا علماءهم وعبادهم أربابًا من دون الله ، يحللون لهم الحرام فيحلونه ، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه ، ويزعمون أنهم يتصرفون في الكون ، وفي جلب النفع ، ودفع الضرر ؛ ولذلك يدعونهم في الملحات ، ويلجأون إليهم عند طلب الحاجات .

وقد سرت هذه العدوى من اليهود والنصارى إلى العرب في جاهليتها ، ومع الأسف الشديد أنها قد فشت عند بعض المسلمين في هذه الأزمنة أكثر من ذي قبل ، فقد عمت البلوى ، وانتشر الشرك باسم تعظيم الأنبياء والصالحين ، حتى جعلوا لهم التصرف في الأمور ، فأخذوا ينذرون لهم النذور ، ويذبحون لهم الذبائح ، ويطلبون منهم أن يدفعوا عنهم البلاء ، وأن يجلبوا لهم النفع ، ودعوهم في الشدائد ، وعظموا قبورهم وبنوا عليها القباب ، وجعلوا يطوفون بها ، ويقصدوها كالكعبة المشرفة ، ولكل قبر موسم من المواسم باسم عيد ميلاده ، فيا خيبة الأمل عندما تراهم يبكون حول هذه القبور ، ويستغيثون بأهلها ، ويطلبون منها المدد والعون

والنصر، كأنهم لم يقرؤوا كتاب الله ، ولم يطرق سماعهم قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ، وقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦]، وقوله عز وجل : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧]. وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

إن هذا المرض الخطير قد عم في كثير من بلاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهو تصديق لما أخبر به المعصوم عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم ، حيث يقول : « لتتبعن سنن من كان قبلكم باعا بباع وذراعا بذراع وشبرا بشبر حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم معهم ، قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال : فمن إذا » رواه البخاري ، وصدق الله العظيم : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

مسائل : الطعن في الأنساب ، والفخر بالأحساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء :

إن مما نهانا عنه رسول الله ﷺ من أعمال الجاهلية : الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب ، والنياحة ، والاستسقاء بالأنواء ، أي

بالنجوم ، وقد حذر ﷺ من الاتصاف بها غاية التحذير ، وأكد أنها من أعمال الجاهلية ، وأخبر أن هذه الأمة لا تتركها أي أنه يبقى بقايا ولو كانوا مسلمين تدخل عليهم هذه الأمور ، ويفعلون فعل الجاهلية ، وإذا فعلوا شيئًا من ذلك فإنه نقص في إسلامهم وضعف في إيمانهم . والمعنى أنها توجد في جملة هذه الأمة ، وإن كان يوجد أناس سلموا منها ، وكلما ضعف الإيمان ، وقل العلم ، كثرت ، وكلما قوى إيمان العبد ، وأنار الله بصيرته بالعلم ، سلم منها ، فقد كانت توجد في القرون الأولى ، لكنها قلة، وهي الآن توجد بكثرة، والحديث لا يدل على أنها تكون في كل فرد من هذه الأمة، ولكن يفيد أنها لا تفقد منها ، فيتصف بها أناس دون آخرين ، والحديث الوارد فيها هو ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ حدثه قال : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستقاء بالنجوم ، والنياحة ، أو قال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب ». وقد بين الألوسي – رحمه الله – وغيره من أهل العلم أن المراد بالفخر في الأحساب : افتخارهم بمفاخر آبائهم ، والطعن في الأنساب : إدخالهم العيب في أنساب الناس ، تحقيرًا لآبائهم ، وتفضيلا لآباء أنفسهم على آباء غيرهم ، والاستسقاء بالنجوم : اعتقادهم نزول المطر بسقوط نجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من المشرق ، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا ، قال تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة:٨٢] ، والنائحة تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران : أي أن الله يجازيها على هذا العمل بلباس

من قطران ، « ودرع من جرب » ، وذلك أنها في وقت المصيبة تلبس ثيابًا خاصة لأجل المصيبة ، وترفع صوتها بالنياحة والكلام المحرم ، وإظهار الجزع ، والتبرم بهذه المصيبة ؛ ولأنها بهذه الأفعال وهذه الأقوال تصهر وتحرق قلوب أهل الميت بما تردده من أوصافه التي كان يتصف بها في حياته. فهذا الحديث دل على بطلان ما كان عليه أهل الجاهلية من هذه الخصال الرديئة ، والأفعال القبيحة .

فالواجب على كل مسلم الحذر من هذه الخصال ؛ امتثالاً لأمر الله جل وعلا وأمر رسوله ﷺ ، وأن يحذر إخوانه المسلمين من ذلك ويدعوهم برفق وحكمة للتمسك بالسنة ، والحذر من البدعة . والله الهادي والموفق .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس الرسالة